

الدين والحياة

القرآن ومنهاج المعرفة

لأستاذ عامر محمود الزفري

من الأمانى السعيدة أن تصنع الشعوب مثالياتها . ومن حق كل شعب أن يناضل في سبيل بلوغه هذه الغاية . وفي العصر الحديث تحاول الفلسفات القيادية سواء في مجال الفكر والأدب أو في مجال السياسة والاجتماع أن تخلق أيديولوجيات تحمل محل المثاليات العتيقة ، وبمدى قرب أمة أو شعب من مثالياته أو تفاعله في أيديولوجيته تسكون قوته المتطورة ويكون كيانه الحى الذى يتعامل به مع الوجود .

والمساواة والإخاء والحرية ، وما يضمن عدم إهدار حق من الحقوق يساعد على التقريب بين الأفراد وبين مآربها في حدود عدم الاعتماد . ذلك وغيره حقوق طبيعية كفلتها الدساتير وقامت من أجلها ثورات . وفي زحمة هذا العصر القلق يعلو الشرر المتطاير من أتون الحياة الصاعد . ولا نكاد في هذه الظهيرة الحامية بحروبها الباردة نكاد لا نرى لهذه الحقوق الطبيعية أثراً في الأخذ بيد الأمم المغلوبة . وانهاضها من كبوتها . لا نكاد نرى للعدل آثاراً حتى في أروقة الهيئة العامة للأمم المتحدة التى هى آخر مطاف للجهود التى بذلت وتبذل من أجل العدل والحرية ومن أجل الوحدة العالمية وتلك الحقوق الطبيعية التى ينادى بها المشترون والشوار وصانعوا الأيديولوجيات إنما هى نقمة الواضحة والسلوك السوى لاستجابة الإنسان للحياة . . . بهذا بدأ صاحبي حديث . واصلاً ما انقطع من قصة الدين والحياة ثم عقب قائلاً : فأين طريقة القرآن التى زعمت أنها خير منظم لاستجابة الإنسان للحياة .

قلت نعم يا صاحبي . القرآن الكريم هو كتاب الإسلام وطريق الحياة السعيدة . إذ هو يعلن في أول نداء له . بجلاء وقوة أن أسباب الرق وباروخ الغايات النبيلة والأهداف السامية هى العلم . والتعلم وإقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان

من علق . إقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم . .
 أول مبادئه العلم والتطلع إلى أسرار الحياة وخباياها . العلم بكل ما تتسع له هذه
 الكلمة من آفاق . الإنسان . المجتمع . الحيوان . النبات . الكون . الخ ويشير إلى أن
 هذا الانجاء الحيوى بالنسبة لقوى الإنسان هو عماد وجوده المنتج وأنه بنفس السبب
 فضل على غيره من الكائنات فى استخلاف الأرض . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضها
 على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا
 إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم . الخ هذه القصة
 التى بين فيها القرآن أن علم آدم بالاكْتساب والخبرة وعلم الملائكة بالوحي والأول
 هو المطلوب للاستخلاف وعمارة الأرض .

لذلك كان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، ودرس علم خير من عبادة ستين
 سنة . أطلبوا العلم ولو بالصين . وكل ما يصل إليه العقل فى مجاله الإبداعى .
 الكونى والطبيعى والاجتماعى إنما نيط به خدمة البشرية على الإطلاق ، فليس ذلك
 لحساب أمة تدمر به أمة أخرى ولا أداة فى يد شعب يرهب به شعباً آخر .
 فنحن نشاهد اليوم آثار العلوم الذرية المرعبة وإحداثها الخوف والقلق فى نفس المجتمع
 العالمى الذى نتج عنه تفلسف رهيب كالوجودية مثلاً .

وهكذا يرسم الإسلام للعقل طريق العمل ويدفعه إلى الكشف ولكن لحساب
 الخير العام والمصلحة الإنسانية .

ألسنت ترى يا صاحبي فى هذا تنظيماً متيناً وخطة صادقة وسلوكاً قويمًا لاستجابة
 الإنسان . نحو التطلع وحسب المعرفة . وهى غريزة نظرية وسلوك طبيعى . هنا نمط
 من التنظيم الدينى لاستجابة الإنسان للحياة .

ثم إقرأ معي قوله تعالى من سورة الحجرات . . هذا النداء العام والتحديد التام
 لمكان الإنسانية فى نظر القرآن . . يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى
 وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم . . الخ . .

إعلان الحقوق الطبيعية لبني الإنسان . يا بني آدم . المسلم وغير المسلم الأسود
 والأصفر والأشقر ، الرجل والمرأة . الصغير والكبير . يا أيها الناس أنتم متساوون
 فى البند أنشأكم من الأرض بدياً بآدم من تراب وبعملية التكرير من تراب الأرض
 بمصفاء الزرع والضرع . ثم تكوّنون حيوانات رقيقة جعلها فى قرار مكين . يخلقكم

في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق . ويقر في الأرحام ما يشاء إلى أجل مسمى .
ثم يخرجكم طفلا وهكذا المساواة المطلقة في عمليات الإيجاد والخلق هي بداية النظر
إلى التقويم البشرى في ضمان الحقوق وإعطاء الحرية والنداء بالمساواة .

إنا خلقناكم من ذكر وأنثى . ومهما تباعدت الدور واختلفت المناخات وتعددت
الازمنة . كل هذه العوامل التي ليست لها آثار إبداعية كونية وإن كانت لها رتوش
في الألوان والغات والآثار .

جعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . إنما سرت عليكم سنة الحياة من التفريق
والتباعد وصرتم شعوبا مختلفة اللسان والسلوك الاجتماعي . وقبائل وكل في فلك
من التفكير يسبحون . ليس ذلك لتتنازعوا لأن نتيجة التنازع هي الفشل . والنظرة
السريعة يا صاحبي لتتنازع هذا التنازع البشرى هي ما نحن فيه من آلام وتفرقة
عنصرية وظلم واستعمار وحروب .

ولكن كما قضت الإرادة الخالقة بهذا التباين في الازمنة والامكنة أشارت
إلى أن سبيل التجمع والتظاهر في موكب النور . والسير نحو الغايات النبيلة إنما
يكون بالتعارف .

التعارف السلي العام . تعارف في المشارب والآمال . وتعارف في اللغات
والآثار . تعارف في كل مرفق من المرافق التي كشف عنها شعب من الشعوب
أو فكرة نبئت عند قبيلة من هذه القبائل . بهذا التعارف العام يسر الموكب ويبلغ
الغايات . وقد فهم الرواد الأوائل من المسلمين هذا . فراحوا يغتربون من بحار
التعارف الانساني من هنود ويونان ورومان وصين . وفي بوتقة هذا الفسك العربي
المسلم انصهرت هذه الاتجاهات وأخرج المسلمون فلسفات عملية إبداعية كانت
القاعدة المثبتة التي شيدت عليها المخترعات الحديثة كالفلك والطب والرياضة . الخ . الخ .
ليس في خطة القرآن احتسار لاية معرفة من المعارف في أى مرفق من المرافق
لاية أمة من الأمم أو شعب أو قبيلة . ليست هناك طبقة الغرب الإبداعية
في الفسك وطبقة الشرق الخاملة المرتمية في أحضان الغيب . ليس هناك احتسار
للذرة لتستخدم ضد الانسان نفسه . ليس هناك احتسار لحساب الأبيض على حساب
الأسود والأصفر .

صدقني يا صاحبي أن هذه المبادئ العفنة التي ما زال العالم يتعثر بسبب وجودها
تتأني طريقة التنظيم الديني وتتأني مبادئ السلام الاسلامي .

فما هذا النداء بالأخوة الانسانية . وأن الوجود على هذه الصورة من الأمم والشعوب والقبائل إنما كان لتنفلق صفارة الأمان . وصوت السلام . ونداء السلم . وهداية السماء . لتمتد بهذا الجمع أن تعالوا يا بني آدم فتعاونوا على البر والتقوى . وكوّنوا عباد الله إخواناً .

ثم أليس في هذا النداء التجمع رسم للسلوك السوى واستجابة خيرة لغريزة الاجتماع التي في الانسان . فيقولون . إن الانسان كائن اجتماعي بالفطرة .

وإذا كانت الأسرة مجتمعاً منزلياً . والامة مجتمعاً شعبياً . فإنما الانسانية هي المجتمع البشرى الكبير .

وإذا كان بعض الفلاسفة محدثين وقلدنا قد نادوا بالحكومة العالمية وتبلورت هذه الأفكار في تكوين عصبة الأمم السالفة وهيئة الأمم الحالية فإنما صنعت أيضاً هذه المنظمات بأيد استعمارية استغلالية . وما زالت تعلقو صفحة اتجاهها . وحادثة فلسطين ومأساة العرب المنكوبين الذين شردهم الاستعمار الانجليزي الكريه ، وتقع هذه المأساة عديمة النظر في التاريخ كله تحت عين العالم وفي عصر التمدن والتحضير . هذا من جانب .

ومن ناحية أخرى فإن هذه العالمية لم تبين لنا طريقة السلوك الذي رسمته لاستجابة الانسان للحياة . بما جعلها نهياً لأفكار فردية أو اتجاهات شعبية أو قيادات ثورية . وليست في هذه التيارات كلها ما يداني أو يقارب مبادئ الاسلام الذي تضمنته آيات القرآن الكريم .

وهنا كان صاحبي الدكتور . ح . م . قد اشترأت نفسه لأن يقاطع حديثي قاتلاً ليس في تقرير أن العلم هو الطريق البناء في حياة الانسان وأن الأخوة الانسانية حق طبيعي . ليس في هذا كله جديد ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فالاسلام يتساوى مع غيره في إطلاق الشعارات .

قلت نعم يا صديقي . يوم أن قال الدين ذلك وانطلق صوته من جوف الصحراء يحجب العالم وينادي بالبحث والكشف . إنما جعله الوسيلة القيمة لبلوغ العابد هدفه . إنما يحشى الله من عباده العلماء . انظر يا صديقي كيف ربط بين ظاهر الحياة وباطنها بالعلم . والعقل . إن هذا الطريقة جديدة لم تكن معروفة لدى الأديان السالفة ، وليس منهجاً من مناهج العلوم السابقة . ثم مبدأ خطير قلب العالم كله

واستجاب له الأمم والشعوب . والغريب أنه لم يقتصر ذلك المنحى على جماعة دون جماعة . بل نلاحظ أن أكثر مفكرى المسلمين الأوائل كانوا من جنسيات غير عربية .

وهذا يخالف النظرة الارستقراطية فى الفكر الإغريق والكنهوت الهندى والطبقى المصرى القديم والجمود الرومانى . وإذن فهو مبدأ جديد وما زالت جدته ظاهرة وحيوة غضة حتى يشاء الله .

أما المساواة فقد كانت شعاراً للثورة الفرنسية فى القرن السابع عشر رغم أن تحديد هذه المساواة وإعطاء صورة كاملة عنها كان وما يزال غير موجود ومعرّوف وقلدت الشعوب الحديثة والثورات الأمريكية والروسية . الخ قلدت هذا الشعار . ولكن إذا عرفت أن هذا النداء بالمساواة إنما دوى فى العالم فى القرن السابع وقد باتت معالمه ووضحت طريقته .

إذا كان الأمر كذلك وهو لا بد كذلك فإنما يكون القرآن الكريم هو المنبع الفياض الذى يجب أن يردّه القادة والمشرعون . وبعد فالقرآن مبادئ عامة تنشد السعادة الإنسانية وتحافظ على إيجادها بالطرق السلبية وتربط بينها وبين الآمال الكونية الكبرى وذلك بتعريف الإنسان مكانه من الوجود .

ولمى اللقاء فى مقال قادم إن شاء الله .

